الخيبة الاجتماعية في شعر الغربة

أ. ماهر كبّاش(*)

لم يكن لأصداء الرحيل أنْ تَحْدث بمعزلٍ عن الواقع سواء أكان هذا الواقع اجتماعياً أم سياسياً أو اقتصادياً، أو غير ذلك مما له صلة بما يفرضه الواقع الإنساني من علاقات ورؤى واتجاهات في الفكر والسلوك . ومن هذا يبدو أنَّ سعي الشعراء وراء حلم جميل من خلال تلك الأصداء لا ينفعهم شيئاً، مادام ذاك الحلم سيبقى بعيد المنال لأنه صار مجرَّد ذكرى من الماضي، فلا الطلل يعود مأهولاً كما كان، ولا الفراق ينقلب عودة ولقاءً، ولا بديل لهم عندئذٍ عن البكاء والشكوى والصراخ للتعبير عن الخيبة واليأس والارتهان في المكان والزمان . وهو تعبير يفسِّر أزمتهم الحاضرة إزاء الأطلال، وما توحي به من رثاء للوجود والمصير الإنساني، وإزاء مفارقة الحبيب أو الوطن والشباب.

ولكن هذه الأصداء تتخذ في حديثنا هنا منحًى آخر يمكن أن يجري ضمن مساحة واسعة للتعبير عن مفارقة العلاقات الإنسانية الجميلة، وتغير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والشعور بالظلم واختلال (المعيارية) السليمة أو نفيها، وانكسار الذات وخيباتها الموجعة . ومن هنا تأتي في المقدمة تلك الأصوات التي جاءت معبّرة عن الخيبة الاجتماعية الممزوجة بمشاعر العزلة والوحدة والتفرّد والوحشة من الناس، وذلك في ظلّ تفكك العلاقات الاجتماعية وفقدانها، ولاسيما ما كان منها متصلاً بالأهل والأقارب ومن ثَمَّ الأصدقاء.

(*) معيد في كلية الآداب بجامعة دمشق.

وهنالك نماذج كثيرة من الاغتراب الاجتماعي الذي تنوَّعتْ أشكاله وألوانه لدى الشعراء العرب عبر العصور وصولاً إلى عصرنا الحالي؛ فكان من الشعراء الجاهليين مثلاً الدعي والطريد والخليع والجار والحليف، فضلاً عن الأغربة الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم السود، كعنترة العبسي مثلاً[١]، إضافةً إلى الصعاليك وغيرهم· ممن كانوا يعيشون على هامش المجتمع حياةً ذليلةً محتقرة، فشكلوا بذلك ظاهرة نموذجية وفريدة في الاغتراب الاجتماعي . ولقد لفتت (د. عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطىء») الانتباه إلى ما تركه الخلع في وجدان هؤلاء، من أثر عميق نافذ سجلته أشعارهم المشحونة بأشجان الغربة، ووطأة الوحدة النفسية وقسوة الحرمان من أُنس الأهل والدار، ورأت أنَّ شعرهم يعبِّر في مجمله عن معاناة وجدانية لمحنة الغربة والتشرّد، وعن مرارة فاضت بها مشاعرهم، وهم يهيمون على وجوههم في الفلوات مشرّدين غرباء[٢]. وهو ما يتفق مع ما وجده (د. وهب رومية) في شعر (الشنفرى) و(عروة بن الورد)، وما سمَّاه بشاعر الغربة والقلق: (تأبَّط شرّاً)، حين رأى أنَّ لدى كل واحدٍ من هؤلاء الصعاليك ذاتاً قلقة مغتربة، غير قادرة على التكيّف مع المجتمع الذي تظل تبحث دائبةً عن حضورها فيه، فلا ترجع بسوى مرارة لاذعة وحسرة مستسرّة واغتراب جريح[٣]. وهو ما تميَّز به (الشنفرى)، ولاسيما في (لاميته) حين قال بعدما ضاقت به ديار بني أمّه، فاتخذ من الذئاب والنمور والضباع أهلاً له بدلاً عن أهله:

(١) يمكن تتبع تفاصيل تلك النماذج فيما عرضه (عبد الرزّاق الخشروم) في كتابه: (الغربة في الشعر الجاهلي: ص ٩٥) وما بعدها.

(٢) قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، بنت الشاطئ: ص ٤١ – ٤٣.

(٣) شعرنا القديم والنقد الجديد، د. وهب رومية: ص ٢٥٥ – ٢٥٨.

ولي دونكم أهلون سِيْدٌ عَمَلَّسٌ وأرقطُ زهلولٌ وعرفاءُ جَيْأَلُ[٤]

«وما غُرْبَةُ الإنسان في شقّةِ النَّوى وفي هذا يرى (د. وهب رومية) أنَّنا

«فليس الغريب مَنْ تناءتْ داره، بل مَنْ فُقِدَ مِنَ الكرام نظراؤه وأنصاره، وهو غريب في فضله ومجده»[٩]، وهو ما حاول المعرّي أن يعبِّرَ عنه في قوله[١٠]:

أولو الفضْلِ في أوطانهم غرباءُ تَشُذُّ وتنأى عنهم القرباءُ

ومِنْ هنا كان أحْرَى لِمَنْ أوتي فضلاً على غيره في العقل أنْ يحيا غريباً بائساً شقياً، ويُنْشِد قائلاً:

«أرى العَقْلَ بؤساً في المعيشة للفتى ولا عَيْشَ إلاَّ ما حَبَاكَ بهِ الجَهْلُ»[١١]

وكذلك الأمر حين يزداد إحساس الإنسان فيزداد شقاؤه، ويتعاظم ألمه، فإذا بالشِّقّة تتسع أكثر بينه وبين الآخرين، فيرى فيهم النقيض الكامل لنفسه وشخصيته، وعندئذٍ ينادي قائلاً:

---

(٤) ديوان الشنفرى: ص ٥٥.

(٥) شعرنا القديم والنقد الجديد، د. وهب رومية: ص ٢٥٥ وما بعدها.

(٦) ديوان المتنبي: ص ٥٤١ ، وشطره الأول: «ولكنَّ الفتى العربي فيها».

(٧) الصداقة والصديق، التوحيدي: ص ٣٤.

(٨) البيت للبستي في إنباه الرواة للقفطي: ١٦٠/١، وهو مما لم يُذكر في ديوانه.

(٩) القول للخفاجي في ريحانة الألبا: ١٧٤/١.

(١٠) ديوان لزوم ما لايلزم، المعرّي: ٤٧/١.

(١١) ديوان البحتري: ص ١٦١٢ .

«أنا في الناس غريبٌ جَسَدي بينهم والروح بينَ الشُّهُبِ»(١٢)

ويتعمّق ذلك الإحساس أكثر كلّما ازدادت حدّة الشعور بالافتقاد اتقاداً في النفس، وبخاصةٍ حين لا يبقى للشاعر الغريب أحد يأوي إليه أو يلوذ به، فلا يملك إلاَّ أنْ يبوح عن معاناته، فيقول:

«ذَهَبَ الذينَ يُعاشُ في أكنافهمْ وبقيتُ في خَلَفٍ كجلْدِ الأَجْرَبِ»(١٣)

ولا ريب أنَّ مَنْ يمرّ بمثل تلك الحال سيفقد الثقة بالناس، ولاسيما حينما يلاقي منهم الظلم والأذى؛ فإذا ما تحدّثَ عن ظُلْمةِ الإنسان أخذَ يتساءل: «وهل في الناسِ إنسانُ»(١٤)؛ ولربما قال بعدئذٍ:

«قلَّ الثقاتُ فلا تركَنْ إلى أحدٍ فأسْعَدُ الناسِ مَنْ لا يعرفُ الناسَ»(١٥)

ولا غرابةَ في أنْ يلتمس فيما هو فيه العزلةَ والانفرادَ مسوِّغاً ذلك بقوله مخاطباً نفسَه:

---

(١٢) ديوان الزركلي: ص ٢٦٩؛ وهناك شواهد كثيرة على الغربة الاجتماعية. والروحية في شعرنا العربي، وبخاصّة ما نراه لدى المتنبي والمعرّي، وغيرهما من الشعراء، ولاسيما المتصوفة منهم.

(١٣) البيت للبيد بن ربيعة العامري من مرثية له في ديوانه: ص ١٥٧؛ وقد تعاورَ هذا المعنى الشعراءُ عبر العصور كأبي نواس الذي بدا (خلفًا في أراذل النسناس) ديوانه: ص ٦٠٥، والتوحيدي الذي غدا (كالمقمور في خلَفِ) الصداقة والصديق: ص ٣٠٢) وصولاً إلى أحمد شوقي في قوله: (وبقيتُ في خَلَفٍ بغير خلاقِ) ديوانه: ١/ ٤٨٨.

(١٤) ديوان ابن المعتز: ص ٤٢١، وشطره الأول: (وما خفْنا من الناسِ).

(١٥) ديوان بهاء الدين زهير: ص ١٧٩.

«فاعتزِلْهُمْ ففي انفرادِكَ منهمْ راحةُ اليأسِ مِنْ حِذَارٍ وذُلِّ»(١٦)

ومما يزيد الأمر سوءًا أنْ يلاقي مرارةَ الظلم مِنْ أقرب الناس إليه، وعندئذٍ ماذا يفعل:

«وظلْمُ ذوي القُرْبى أَشَدُّ مضاضةً على المرءِ مِنْ وَقْعِ الحسامِ المهنَّدِ»(١٧)

ولاسيما حين لا يجد منهم سوى الغدر والمذلّة والجفاء والنكران؟ .. أَتُرَاه يقول:

وهكذا كنتُ في أهلي وفي وطني إنَّ النفيس غريبٌ حيثما كانا»(١٨)

بعدما وجد أنَّه «غريب كصالحٍ في ثمودِ»(١٩)، وأنَّ مقامه بين قومه كان «كَمُقامِ المسيحِ بين اليهودِ»(٢٠)؛ أمْ أنَّه يبحث عن البديل بارتحاله إلى الأصدقاء الذين لن يعثر عليهم في تغرّبه المتواصل؟ . فإنْ ظنَّ نفسَه قد وجدت ضالتها في أحدٍ ما، فإنَّه سرعان ما يخيب رجاؤها فيه؛ ومنْ لا يحصد في مثل ذلك إلاَّ الخيبة لا نعجب منه إذا أنْشَدَ متمثِّلاً بمَنْ قال:

«كذلك جَدِّي ما أصاحبُ مِنَ الناسِ إلاَّ خانني وتَغَيَّرا»(٢١)

---

(١٦) خريدة القصر، الأصفهاني: ١/ ٥٢٥، وهو لأسامة بن منقذ مما ليس في ديوانه.

(١٧) ديوان طرفة بن العبد: ص٤٠ .

(١٨) ديوان المتنبي: ص ١٨٢ .

(١٩) ديوان المتنبي: ص ٢٢، وتتمته بدايةً: (أنا في أمّةٍ تداركَها اللّ // هُ ...).

(٢٠) ديوان المتنبي: ص ٢٠، وشطره الأوّل: (ما مُقامي بأرضِ نَخْلَةَ إلاّ) .

(٢١) ديوان امرئ القيس: ص ٦٩.

وهكذا تبدو البلاد جميعها شروراً في ناظريه أينما كان وحيثما حلَّ؛ فإذا ما أدرك أخيراً أنَّ «شرّ البلادِ مكانٌ لا صديقَ بهِ»[٢٢]، استولى عليه الحزن وغمره اليأس؛ وإذا ما وجَدَ أنَّه أضحى غريباً في مجتمع لا مكان فيه لمن يحمل في قلبه الصدقَ والوفاء، صاح قائلاً:

«كفى حَزَناً أني صديقٌ وصادقٌ وما لي مِنْ بَيْنِ الأنامِ صديقُ
فكيفَ أريغُ الأبعدينَ لخلّةٍ وهذا قريبٌ غادرٌ وشقيقُ»[٢٣]

ولرُبّما زجَرَ قلبه عمَّا جُبِلَ عليه من الشوق والإخلاص والوفاء لمن لايستحقُّ ذلك فقال:

«أَقِلَّ اشتياقاً أيها القلبُ رُبّما رأيتُكَ تصفي الودَّ مَنْ ليس صافيا»[٢٤]

وما يزيد الأَمْرَ سوءًا على الشاعر الغريب أنْ يكون رهناً للفقر، وهو بين أهله وقومه، فيتنامى إحساسه بالظلم والقهر واليأس، ويتعالى في نفْسِه صوتٌ خائبٌ جريح يقول له:

واللّهِ ما الإنسانُ في قومه إذا بُليْ بالفَقْرِ إلاَّ غريبْ»[٢٥]

فالفقر «الموت الأكبر»[٢٦]، و«كاد أنْ يكون كُفْراً»[٢٧]؛ وكيف لا يكون كذلك؟!. وهو «أوْحَشُ مِنَ الغربةِ»[٢٨]، ولا سيّما حين يكون «الفقير في أهله

(٢٢)ديوان المتنبي: ص ٣٣٣، وشطره الثاني: (وشرُّ ما يَكْسِبُ الإنسانُ ما يَصِمُ).
(٢٣) ديوان الشريف الرضي: ص ٥٧٤ .
(٢٤) ديوان المتنبي: ص ٤٤٢ .
(٢٥) المستطرف في كل فن مستظرف، الأبشيهي: ص ٢٩١ .
(٢٦) نهج البلاغة، الإمام علي (كرّمَ اللهُ وجهَه): ٥/ ٤٥٨ .

مصروماً، والغني في الغربة موصولاً»[٢٩]؛ فـ«إذا عدمْتَ أنكَرَكَ قريبُك، وإنْ أثريْتَ عَرَفَكَ غريبُك»[٣٠].

ويظنّ الغريب أنَّ هذا الصوتَ المنبجسَ من أعماقه ليس صوته وحده؛ وإنّما هو أصداء لأصوات مرتحلة في جراح كلِّ مَنْ أذرى به الفقر، فكانت بَوْحاً متْعَباً معبِّراً عن أبرز عوامل الاغتراب التي تلاقى فيها الغرباءُ في هذياناتهم النثرية أو الشعرية؛ فإذا ما تذكَّر في ذلك قول البحتري:

وإذا الزمانُ كساكَ حلَّةَ مُعْدَمٍ فالبسْ له حللَ النوى وتغرَّبِ»[٣١]

تذكَّرَ معه أيضاً ما قاله الآخرون في هذا الشأن؛ ولعلَّه في تذكّره هذا أدركَ أخيراً أنَّ ظنونه تلك لم تكن إلاَّ حقيقةً كان يتوارى خلْفَها بصَوْغ كلماتٍ تعبِّر عن لواعج نفسه، وكيف لا ؟!. وقد كان يتلقَّفُها مِنْ هنا وهناك مِنْ خلال مشاركة وجدانية حميمة، فكانت ترتحل معه عميقاً في الذاكرة التي سرعان ما تكتشف أنّه لم يكن يهذي، ولا أحد مِنْ هؤلاء الذين راح يردّد أصواتهم كان كذلك أيضاً؛ فلم تكن تلك الأصوات في حقيقتها إلا تعبيراً عن واقعٍ مأزوم، وهو وحده المصاب بالقحط والعقم والخلل والهذيان؛ فإذا كان في الناس مَنْ أُصيبتْ نفوسهم بمثل ذلك باعتبارهم جزءًا لا يتجزّأ من عمليةِ خلْقِ مثل هذا الواقع بمنعكساته السلبية، فإنَّ الغرباء كانوا أكثر الناس انفصاماً

(٢٧) تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، ناصر الألباني: ص ٩.

(٢٨) البلدان، ابن الفقيه: ص ١٠٧ .

(٢٩) البلدان، ابن الفقيه: ص ١٠٧ .

(٣٠) البلدان، ابن الفقيه: ص ١٠٧ .

(٣١) ديوان البحتري: ص ٧٩.

وانفصالاً عنه، وذلك في محاولاتهم المستمرّة للشكوى منه والتمرّد عليه بالهروب أو الانسلاخ عنه، وذلك لِمَا في نفوسهم مِنْ رغبات تبحث عن الخلاص، فتحاول أنْ تجد لها فسحةً ما مِنَ الخصب والحرية.

هكذا كان شأن الغرباء؛ فإذا ما كنّا نحن أيضاً غرباء، فإنَّ تلك الأصوات سوف تعني لنا كثيراً حين تغدو جزءًا لا يتجزّأ مِنْ ذكرياتنا . أمَّا الذاكرة فتبدو في ذلك –كما أخبر عنها (روزنتال) – مفتاح الوصول والاتحاد الذي يقود الناس إلى التعاطف؛ والشعر يضيء هذا الوصول، ويوسِّع مداه بكشفه عن التفصيلات الدقيقة لتجارب الآخرين وانفعالاتهم(٣٢).

أمَّا ذاك الغريب الذي يعيش في كلِّ واحدٍ مِنَّا، ويتوارى خلْفَ الذكريات، فتراه يؤوب إلى تداعيات نفسه ليقول: «وفي الأرض مَنْأًى للكريم عن الأذى»(٣٣)؛ فلا وطن بلا عزّ ، ولا عزّ بلا أهل وحريّةٍ وأمن، ولا أمْنَ مع الفقر، «فلَلْموتُ خَيْرٌ مِنْ حياةٍ على عُسْرٍ»(٣٤)؛ وربَّما يكون الموتُ أحدَ ملاذاته الآمنة في بحثه الدائب عن الأمان الحقيقي مثلما عبَّرَ عنه في هذا البيت:

«إنْ كانَ لا بُدَّ مِنْ أهْلٍ ومِنْ وطنٍ فحيثُ آمنُ مَنْ ألقى ويأمنني»(٣٥)

وربّما يجد ضالته في الارتحال إلى مَنْ يعوِّضه بكرمه عن فقدانه الأهلَ والوطن، فيقول

(٣٢) الشعر والحياة العامة، روزنتال: ص ٤٣ .

(٣٣) ديوان الشنفرى: ص ٥٥، وشطره الثاني: (وفيها لِمَنْ خافَ القِلَى مُتَعزَّل).

(٣٤) معجم الأدباء، ياقوت الحموي: ١/ ٢٨ من رسالة له مليئة بالشكوى من الغربة نثرًا وشعرًا.

(٣٥) المصدر السابق نفسه: ص٣٠ .

«رمى بيَ الدَّهْرُ عَنْ أهلي وعَنْ وطني إلى مضيفٍ فكان الأهْلَ والوطنا»[٣٦]

فإذا ما وصل إلى بغيته فإنّه لا يتوانى عن عرْضِ ما يلاقيه الغرباء على أعتاب مضيفهم، فيقول[٣٧]:

«كَمْ مِنْ طريدٍ نازحٍ قَذَفَتْ بهِ أيدي النوى في القَفْرِ رَهْن سَفارِ
بلَّغْتَه ما شاءَ مِنْ آمالِهِ فسلا عن الأوطانِ بالأوطارِ»

ولكنّه إذا ما خاب في مسعاه تملّكه اليأس مجددًا مما هو مرتهن فيه، ثُمَّ بكى وقال:

«أنا في الغربة أبكي ما بكتْ عَيْنُ غريبِ
لم أكنْ يومَ خروجي مِنْ بلادي بمصيبِ»[٣٨]

أ أكون «كالغَرْسِ الذي زايلَ شِرْبَه وفارقَ أرضَه، فهو ذاوٍ لا يتّقد وذابلٌ لا يُثْمر»[٣٩]، فأصير

«متشتتًا لا أستقرُّ ببلدةٍ في كلِّ يومٍ أُبتلى بفراقِ»[٤٠]

وأغدو:

«شريدًا طريدًا قليل العزاء سحيقَ المحلِّ بعيد الوطنْ»[٤١]؟!!

(٣٦) ديوان عبّاس النجفي، (مخطوط الظاهرية رقم ٨٨١٨): ورقة ١٦/ آ .

(٣٧) ديوان ابن زمرك: ص ٦٠.

(٣٨) البيتان لأحد القوّالين كما في (طبقات الشافعية الكبرى، السبكي: ٢/ ٣٨).

(٣٩) نهج البلاغة، الإمام علي كرَّمَ الله وجهه: ٥/٩٦١، وبدايته: «الغريب كالغَرْس».

(٤٠) البيت للخازن الشافعي في (فوات الوفيات، ابن شاكر الكتبي: ٤/ ٣٣٥).

(٤١) البيت لمجهول ضمن قصة سردها الأصبهاني في (أدب الغرباء : ص ٦٩).

ويسأل ذاته:ألم تدركْ يا هذا أنَّ ((الغربة كربة))[٤٢]، وتسمعْ أصداءَ أصوات مَنْ ذمّوها فقالوا:

لا ترغبوا إخوتي في غربةٍ أبدًا إنَّ الغريبَ ذليلٌ حيثما كانا))[٤٣]

فإلى أين تلتجىء في غربتك، وأنتَ تعلم أنَّ (الغريب في كلِّ مكانٍ مظلوم)[٤٤]؟!.

أيكون لكَ ملتجأٌ غير أنْ ترتحل بكلِّ مشاعرك إلى النبي ﷺ، فتناديه مستغيثاً[٤٥]:

((يا رسولَ الإلهِ إنّي غريبٌ فأغثني يا مُنْجِدَ الغُرَباءِ
يا رسولَ الإلهِ إنّي فقيرٌ فَأَعِنّي يا مَلْجأَ الفقراءِ
يا رسولَ الإلهِ إنْ لم تُعنّي فإلى مَنْ تُرَى يكون التجائي
أنتَ ذُخْري وعُدَّتي وملاذي وغياثي وعُمْدتي ورجائي))؟!!..

أَمْ تُرَاكَ تؤوب كسائر الغرباء إلى آلامك وأحزانك لتردّد معهم: ((أهكذا تمضي السنون، .../ ونحن مِنْ منفى إلى منفى ومِنْ بابٍ لباب،/ نذوي كما تذوي الزنابقُ في التراب))[٤٦]؟!. وحين تذوي الزنابق تذوي معها وترتحل كل الأزهار والرياحين، ولاسيما إذا كانت تعيش في ظلال القهر والأسر والنفي

(٤٢) رسائل الجاحظ ٢/٣٩٠، وتتمة القول: ((والقلّة ذلّة)).
(٤٣) رسائل الجاحظ: ٢/ ٣٩٠.
(٤٤) سراج الملوك، الطرطوشي: ص ٣٥٠ .
(٤٥) نزهة الخاطر وبهجة الناظر، الأنصاري: ١/١٨٤– ١٨٥، والأبيات للنواجي.
(٤٦) ديوان عبد الوهاب البياتي: ٢/ ٢٤.

وتزاحم الأضداد، وفي واقع مأزوم لا خصب فيه . إنّه الواقع الذي تبدو فيه الزهرة الجميلة، التي امتدّت إليها يد عابث لتقطفها وتفصلها عن أرضها، حزينةً أسيرةً في إناء؛ ومِنْ خلال مشاعر الغريب الوجدانية والتماثلية، التي تتعاطف معها وتحس بأحزانها وغربتها، تغدو في ذبولها وموتها المفجع رمزًا لذبول الفضائل الإنسانية وموتها. فأيُّ رحيل ذاك الذي تحمل صدى مواجعه زهرة سجينة ميتة، وشاعر غريب مشتَّتٌ ما بين مناجاتها ومناجاة ذاته، فراح يقول(٤٧):

«إسارُكِ – يا أخْتَ الرياحينِ – مفجعٌ وموتُكِ – يا بنتَ الربيعِ – رهيبُ
ولكنها الدنيا، ولكنَّه القضا وهذا – لَعَمْري – مثل تلك غريبُ
فكمْ شَقِيَتْ في ذي الحياةِ فضائلٌ وكمْ نعمتْ في ذي الحياةِ عيوب
وكمْ شِيَمٍ حسناءَ عاشتْ كأنّها مساوئُ يُخْشَى شرُّها وذنوبُ»

إنَّه الأسر الذي كابده كثير من الغرباء بطرق متنوِّعة وأساليب شتَّى؛ فمنهم مَنْ باتَ مأسورَ الهوى، ومنهم مَنْ عانى مرارةَ العزلة والسجن، ومنهم مَنْ صارَ رهْنَ الأسى بذهاب بصره، وببقائه حبيساً في منزله(٤٨)، ومنهم مَنْ ضاقتْ عليه الأرضُ بما رحبتْ، فعبَّرَ عن ذلك قائلاً:

«تضيقُ عليَّ الأرضُ حتَّى كأنَّما خُلِقْتُ وإيَّاها سواراً ومعصما»(٤٩)

(٤٧) ديوان إيليا أبي ماضي: ص١٣٥ مِنْ قصيدة يصف فيها زهرة سجينة .

(٤٨) كالمعري في لزومياته ١/ ٢٠٤، ومؤرّج السدوسي في وفيات الأعيان لابن خلكان: ٥/ ٣٠٥ .

(٤٩) وفيات الأعيان، ابن خلكان: ٥/٣٣، وهو للمعتمد بن عبّاد مما ليس في ديوانه.

ومنهم مَنْ وقَعَ وطنه في قبضة الاستبداد أو الاحتلال، فعانى مِنْ وطأةِ الأسرِ والقهر والاعتقال والتنكيل والتشريد والنفي، ومِن انتزاع الحريات وتقييدها، ولاسيما حرية التعبير عن الرأي(٥٠). إنَّه الأسر الذي يُغْرِقُ المدنَ في اغتراب عميق، ويدخل الأمكنة المستلبة في دوَّامات الضياع، فتغدو كلُّ مدينةٍ مقهورةٍ في عيني الغريب مثلما غدتْ غرناطةُ وأخواتها، فيعمُّ البكاءُ كلَّ الأماكن فيها؛

«حتَّى المحاريبُ تبكي وهْيَ جامدةٌ حتَّى المنابرُ تبكي وهْيَ عيدانُ»(٥١)

وهكذا غدتْ غرناطةُ رمزًا لكلِّ المدنِ المذبوحة(٥٢)، على حين راحَ الغريب يردد كلّما مَرَّ على مدينةٍ يعرفها: «في زحمةِ المدينةِ المنهمرةِ أموتُ لا يعرفني أحد، أموتُ لا يبكي عليَّ أحد»(٥٣)؛ فكلُّ مدينةٍ مذبوحةٍ هي مدينتي، وكلُّ مأساةِ لاجىءٍ ومنفي ومشرَّدٍ هي مأساتي، فكيف لا أردد بعضَ أصداء أصوات هؤلاء المفعمة بالخيبة والمثخنة بالجراح فأغنّي: «إنّي مِن القوم الذين مِنَ

(٥٠) انظر حول ذلك كلّه في: (الحنين والغربة، د. ماهر فهمي: ص٣٥ – ١٠٣).

(٥١) من قصيدة لأبي البقاء الرندي نسبَها الخفاجي في (ريحانة الألبا: ١/٧٠ ٣) ليحيى القرطبي.

(٥٢) لعلَّ في حديث الشعراء عن انهيار مدن الأحلام لديهم، كدمشق وبغداد ومكة وكربلاء، ومدن الأندلس، ولاسيما قرطبة وغرناطة، ما يمثّلُ معادلاً شعريًا لانهيار الواقع السياسي للأمة . انظر: (المدينة في الشعر العربي المعاصر، د. مختار أبو غالي: ص ٣١٧ وما بعدها).

(٥٣) ديوان صلاح عبد الصبور: ١/ ١٩٤.

الجذورِ اقتُلِعُوا .../ وأصبحوا على مدارج الرياح / مبعثرين لا ينتمون إلى وطن»(٥٤)،

«أنْسَتْهُمُ الأيَّامُ ما ضحكُ الحياةِ وما البكاءْ
أزْرتْ بدنْياهُمْ ولمْ تتْرُكْ لَهُمْ فيها رجاءْ»(٥٥)؟!!

وهكذا «صرتُ ضائعاً بدون اسم، / هذا أنا وهذه مدينتي»(٥٦)؛

وهكذا تتعمق في ذات الغريب مهاوٍ سحيقة مِنَ الخيبة واليأس والارتهان لغربته الفردية؛ وذلك مِنْ خلال إحساسه المرهف باغترابات الآخرين ومآسيهم التي تغدو امتداداً لغربته ومأساته، ولاسيما حين تكون غربة الآخرين ضياعاً اجتماعياً شاملاً، وصراعاً مع الحياة لإثبات الوجود والكيان المستلب، وبحثاً عن وجودٍ ضائع، لا إزاءَ الحياة والموت أو الزمان، وإنّما تجاه الواقع الإنساني.

ومن هنا، فإنَّ الشعر الحقيقي – كما يرى (د. وهب رومية) – له علاقة وثيقة بما تموج به حياة المجتمع مِنَ الشدائد، وبما تزخر به النفوس مِنَ الأشواق والمخاوف والأحلام الفردية . ولذلك اعترضَ على آراء النقاد في حصرهم وظيفة الشعر ضمن بُنًى معزولة مغلقة ومحدودة، كالتكسّب في قصيدة المدح مثلاً، فلا تكاد هذه البنى تتصل بالظواهر الاجتماعية الأخرى إلاَّ بأوهى الأسباب، وبذلك تجعل الشاعر ذاتًا منكفئةً على نفسها تصمّ أذنيها وتغمض عينيها وتوصد أبوابَ القلبِ والروح، وتنكمش منغلقةً، فتنقطع عن حركة المجتمع وقضاياه ومخاوفه وأحلامه وشروطه التاريخية، وليس الشاعر كذلك . ولهذا فإنَّ أهمَّ خصائص

(٥٤) ديوان فدوى طوقان: ص ٤١٢ – ٤١٣.
(٥٥) ديوان عمر أبو ريشة: ص ٢١ – ٢٢ في وصفه مخيمات اللاجئين الفلسطينيين.
(٥٦) الأعمال الكاملة لأحمد عبد المعطي حجازي: ص ٩٨.

الشعر لديه تتمثَّل في كونه تصويرًا للتجارب البشرية وتعبيرًا عنها وعن الأحزان الفردية وانكسار الذات وخيباتها الموجعة(٥٧).

ومِنْ هنا أيضاً يمكننا القول: إنَّ كلَّ تلك الأحزان والانكسارات والخيبات الفردية أو الجماعية لا تكاد تخلو منها حقبةٌ أو أيُّ عصرٍ كان، وكأنّها صارت أليف الإنسان وقدره مادام الواقع الإنساني الخاص والحياتي العام مرتبطاً ارتباطاً وثيقًا بـ(اللامعيارية) والتناقضات؛ وهو ما يمكن أن نلمسه بوضوح في مواقف مأزومة عديدة للشعراء، ولاسيما ما كان منها يجري على الصعيد الاجتماعي.

وفي ذلك تبدو صور الاغتراب الاجتماعي في شعرنا المعاصر أنّها توسّعتْ كثيرًا لتتناول مستويات المجتمع كافة؛ فلم يتحرّج الشعراء مثلاً أنْ يتناولوا في شعرهم (البغي) أو (المومس)، فشكَّلوا بذلك أخطر المنعطفات في تاريخ الشعر العربي، وصوّروا مِنْ خلالها الحالة الإنسانية المغتربة الثائرة على المدينة التي تمتهن كرامةَ الإنسان، وأدانوا بتصوير مأساتها الواقعَ المزري(٥٨).

ولكن هذا الواقع عميق الجذور في امتداداته التاريخية التي تصل إلى الشعر الجاهلي، حيث يبدو فيه الشاعر مولعاً بالنفي والتدمير والحرمان، فكأنَّ هذه

(٥٧) شعرنا القديم والنقد الجديد، د. وهب رومية: ص ١١٣، ١٢١، ١٢٥، ١٢٦، ١٤٣– ١٤٥ ومن الجدير ذكْرُه أنَّ أكثر قصائد المدح العربية مشفوعة بمقدمات تكاد نفس الشاعر تذوب فيها حنينًا ووجدًا وغربةً، ولعلّ في النصوص التي في كتابه (قصيدة المدح) دليلاً كافيًا على ذلك.

(٥٨) يمكن تتبع الأمثلة في: المدينة في الشعر العربي المعاصر، د. أبو غالي: ص ١٢١ وما بعدها.

السبل هي القادرة على تحقيق الذات وتعميق الإحساس بها، ولا شيء وراء ذلك سوى الأقدار العمياء التي تقسم الناس إلى غانم ومحروم(٥٩).

وفي ذلك كلِّه تبدو أصداء الخيبة واليأس والارتهان صدًى للذات المؤجَعة المنكسرة والمقهورة إزاء أزمات الواقع المستَلَبَة فيها؛ ويبقى الشعور بالفقد محور هذا الاستلاب، وبسببه يزداد الإحساس بالأزمة ليدور الشاعر في حلقة مفرغة مِنْ الخيبة واليأس؛ وفي ذروة ذلك تتعالى أصوات الغضب والتمرد والتنديد بالواقع والشكوى منه؛ وهو ما يحاوله الغريب كي يعيد التوازن إلى ذاته المزعزعة أو المهزومة في واقع يعجز عن تغييره أو عن إعادة التوازن إليه ضمن المعيارية السليمة.

المصادر والمراجع

١- أدب الغرباء، لأبي الفرج الأصفهاني، دار الكتاب الجديد بيروت ط٢/١٩٩٣م.

٢- الأعمال الكاملة لأحمد عبد المعطي حجازي، دار سعاد الصباح الكويت ١٩٩٣م.

٣- إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي المتوفَّ ٦٢٤هـ، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم – دار الفكر القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، ط ١/ ١٩٨٦م.

٤- البلدان، لابن الفقيه (أحمد بن محمد الهمذاني المتوفَّ سنة ٣٤٠ هـ)، تحقيق: يوسف الهادي – عالم الكتب بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٥- تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، محمد ناصر الألباني – المكتب الإسلامي، بيروت ودمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.

(٥٩) شعرنا القديم والنقد الجديد، د. وهب رومية: ص ٢١٩، ٢٢٢ .

٦- الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، د. ماهر حسن فهمي – معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٠م، مطبعة الجبلاوي، الترعة البولاقية، القاهرة.
٧- خريدة القصر وجريدة العصر، (ج١/ شعراء الشام)، للعماد الأصفهاني المتوفَّ ٥٩٧هـ، تحقيق: د. شكري فيصل – طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٥٥م.
٨- ديوان ابن زمرك: (محمد بن يوسف الغرناطي) المتوفَّ سنة ٧٩٦ هـ، جمعه: د. أحمد سليم الحمصي – المكتبة العصرية صيدا، بيروت – طبعة أولى ١٩٩٨م.
٩- ديوان ابن المعتز المتوفَّ سنة ٢٩٦هـ – دار صادر، بيروت، بلا تاريخ.
١٠- ديوان أبي نواس، حققه: أحمد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت.
١١- ديوان أحمد شوقي، شرح: د. أحمد الحوفي – دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٩م.
١٢- ديوان أسامة بن منقذ المتوفَّ سنة ٥٨٤ هـ، دار صادر بيروت – ط١/١٩٩٦م.
١٣- ديوان امرئ القيس، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم – ط٣/ دار المعارف بمصر.
١٤- ديوان إيليا أبي ماضي – دار العودة، بيروت ١٩٥٤م.
١٥- ديوان البحتري، تحقيق: حسن كامل الصيرفي – طبعة ٣/ دار المعارف بمصر.
١٦- ديوان البستي (أبي الفتح) المتوفَّ نحو سنة ٤٠١ هـ.، تحقيق: درية الخطيب ولطفي الصقال مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق – ١٩٨٩م.
١٧- ديوان بهاء الدين زهير المتوفَّ سنة ٦٥٦ هـ.– دار صادر – بيروت ١٩٦٤م.
١٨- ديوان الزركلي المتوفَّ ١٣٩٦هـ – مؤسسة الرسالة، بيروت – ط١/١٩٨٠م.
١٩- ديوان الشريف الرضي، شرح: محمد اللبابيدي – الأعلمي بيروت١٣١٠هـ.
٢٠- ديوان الشنفرى، إعداد: طلال حرب، دار صادر بيروت – طبعة أولى ١٩٩٦م.
٢١- ديوان صلاح عبد الصبور، دار العودة، بيروت ١٩٧٢م.
٢٢- ديوان طرفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق: درية الخطيب، لطفي الصقّال، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٥م.

٢٣- ديوان عباس بن محمد القرشي النجفي المتوفَّى سنة ١٢٩٩ هـ – مخطوطة في مكتبة الأسد بدمشق محفوظة تحت رقم (٨٨١٨ ظاهرية).
٢٤- ديوان عبد الوهاب البياتي، دار العودة بيروت ١٩٧٢م.
٢٥- ديوان عمر أبو ريشة، دار العودة بيروت ١٩٧١م.
٢٦- ديوان فدوى طوقان، دار العودة بيروت ١٩٨٤م.
٢٧- ديوان لبيد بن ربيعة العامري المتوفَّى سنة ٤١هـ، حققه: د. إحسان عبّاس – سلسلة التراث العربي، الكويت، وزارة الأنباء ١٩٦٢م.
٢٨- ديوان لزوم ما لا يلزم، تأليف: أبي العلاء المعري، برواية: الخطيب التبريزي، ومراجعة: الجواليقي – دار الجيل، بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
٢٩- ديوان المتنبي المتوفى سنة ٣٥٤هـ – المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
٣٠- ديوان المعتمد بن عبّاد، تحقيق: رضا السويسي – التونسية للنشر ١٩٧٥م.
٣١- رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة خانجي القاهرة ط١/١٩٦٤م.
٣٢- ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، شهاب الدين الخفاجي المتوفَّى ١٠٦٩ هـ؛ تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو – مطبعة عيسى البابي الحلبي، طبعة أولى ١٩٦٧م.
٣٣- سراج الملوك، لأبي بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي الأندلسي المتوفَّى سنة ٥٢٠ هـ المطبعة الوطنية بالإسكندرية ١٢٨٩هـ .
٣٤- شعرنا القديم والنقد الجديد، د. وهب رومية – عالم المعرفة الكويتية، العدد ٢٠٧/آذار ١٩٩٦م. – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت .
٣٥- الشعر والحياة العامة؛ روزنتال، ترجمة: إبراهيم الشهابي – وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٣م.
٣٦- الصداقة والصديق، تأليف: أبي حيَّان التوحيدي المتوفَّى سنة ٤١٤ هـ، تحقيق: د. إبراهيم الكيلاني – دار الفكر، دمشق، بيروت – الطبعة الثانية ١٩٩٦م.
٣٧- طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، دار المعرفة بيروت، الحسينية ١٣٢٤هـ.

٣٨- الغربة في الشعر الجاهلي، عبد الرزَّاق الخشروم، منشورات: اتحاد الكتَّاب العرب، دمشق ١٩٨٢م.
٣٩- فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي المتوفَّى سنة ٧٦٤هـ، تحقيق: د. إحسان عباس – دار صادر، بيروت – ١٩٧٣م.
٤٠- قصيدة المدح حتَّى نهاية العصر الأموي بين الأصول والإحياء والتجديد، تأليف: د. وهب رومية – منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨١م.
٤١- قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) – مكتبة الدراسات الأدبية ٥٤ – دار المعارف بمصر ١٩٧٠م.
٤٢- المدينة في الشعر العربي المعاصر، د. مختار أبو غالي – عالم المعرفة – العدد ١٩٦/ نيسان ١٩٩٥م. – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
٤٣- المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين بن محمد الأبشيهي المتوفَّى سنة ٨٥٢هـ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع – دار القلم، بيروت ١٩٨١م.
٤٤- معجم الأدباء، تأليف ياقوت الحموي الرومي البغدادي المتوفَّى سنة ٦٢٦هـ – دار إحياء التراث العربي، بيروت عن طبعة دار المأمون العربية .
٤٥- نزهة الخاطر وبهجة الناظر، شرف الدين موسى الأنصاري المتوفَّى بعد سنة ١٠٠هـ، حققه عدنان إبراهيم – وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩١م.
٤٦- نهج البلاغة، للإمام علي كرَّم الله وجهَه، بشرح ابن أبي الحديد المتوفَّى سنة ٦٥٦هـ، حققه حسن تميم – دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٤م.
٤٧- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان شمس الدين أحمد بن محمد المتوفَّى ٦٨١هـ، تحقيق: د. إحسان عباس – دار صادر، بيروت.